

"القديس أوغسطين في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر"

سليمة بودخانة

قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2 sboudoukhana@gmail.com

تاريخ القبول: 2020/02/17

تاريخ المراجعة: 2019/12/04

تاريخ الإيداع: 2019/05/27

ملخص

كانت المراكز الحضارية بعد الاحتلال الوجيه المفضلة للرحالة الفرنسيين، وبرزت من خلال رصيد ثري عُرف بمعالم ورموز المدن من بينها منطقة سوق أهراس التي حظي أعلامها كـ "القديس أوغسطين" بالاهتمام، و القديس شخصية محلية ذات بعد إنساني عالمي قدمت إضافات في الفكر الديني والفلسفي وأهمها نظرية حركية التاريخ الدائمة من بداية الخلق إلى نهايته، فكانت صورته ميثولوجية في عيون الرحالة الفرنسيين وارتبطت بالسياحة الدينية، وساهمت الكتابات ورحلات الحج في تثمين المعالم الحضارية كموروث ثقافي محلي خاص بالمنطقة والبلاد.

الكلمات المفتاحية: سوق أهراس، كتابات الرحلة، "القديس أوغسطين"، حج، بعد إنساني وعالمي، قرن تاسع عشر.

*Symbols of Souk-Ahras:**The Image of St. Augustine in the Writings of French Travelers of the Nineteenth Century***Abstract**

After the colonization of Algeria, the cultural centers became the preferred destination for the French travelers, they written about cities as Souk-Ahras and its symbols such as St. Augustine. This local personality with a universal human dimension has added additions to religious and philosophical thought and most importantly the theory of the movement of permanent history from the beginning of creation to its end. His image was a mythology for the French travelers, and played a role in the religious tourism. The writings contributed to the appreciation local cultural heritage of the country.

Keywords: Souk-Ahras, writings of the trip, St. Augustine, Pilgrimage, human and global dimension, nineteenth century.

*Les Symboles de Souk-Ahras:**L'image de Saint Augustin dans les écrits des voyageurs français du XIXe siècle***Résumé**

Après l'occupation du pays, les centres civilisationnels et culturels visités par les voyageurs français étaient présentés par des écrits sur les villes et les symboles, comme Souk-Ahras et son célèbre penseur Saint Augustin. Cette personnalité locale à la dimension humaine et universelle a ajouté à la pensée religieuse et philosophique et créé la théorie du mouvement de l'histoire. Ainsi, son image mythologique était attractive au tourisme religieux. Ces écrits ont contribué à la valorisation du patrimoine culturel local du pays.

Mots-clés: Souk-Ahras, écrits du voyage, Saint Augustin, Pèlerinage, dimension humaine et globale, 19^e siècle.

- توطئة:

يعتبر القرن التاسع عشر مرحلة انتقالية لنهاية العهد العثماني وبداية الفترة الاستعمارية في البلاد والتي عرفت تغيرات اجتماعية واقتصادية ارتبطت بالوضع السياسي الجديد، فكانت المراكز الحضرية ومنها سوق أهراس الوجهة المفضلة لعدد الرحالة الفرنسيين الذين جاؤوا لاستكشافها والتعرف عليها وعلى ساكنتها، فبرزت من خلال رصيد ثري بكتابات متنوعة كانت السبّاقة في التعريف بمكونات المجتمع المحلي ومحاولة اختراقه وفهمه من الداخل، كما عرفت بمعالم المدينة التي كتب عنها الكثير ممن زاروا المدينة.

ومن أهم أعلامها ورموزها المفكر "القديس أوغسطين" الذي حظي بعدد الكتابات التي اعتبرته معلما حضاريا في المنطقة، وإرثا ثقافيا إنسانيا وعالميا منذ التاريخ القديم وظل كذلك حتى وقتنا الحاضر، هذه الشخصية المحلية ذات البعد الإنساني والعالمي قدمت إضافات عديدة في الفكر الديني والفلسفي وأهم ما قدم نظرية حركية التاريخ الدائمة من بداية الخلق إلى نهايته.

فما كان زائرا يفد إلى الجزائر إلا وزارها ومثلت جزءا ثابتا وقارا في مسار وطريق الرحلات التي تمر عبرها إلى وسط البلاد والمناطق الداخلية أثناء فترة الاحتلال الفرنسي خاصة في بداياته خلال القرن التاسع عشر.

ترتكز إشكاليتنا حول صورة القديس أوغسطين في عيون الرحالة الفرنسيين، فكيف رصده الفرنسيون وما مدى دقة وموضوعية كتاباتهم حوله؟ وهل ساهمت هذه الكتابات في التعريف والتأريخ للقديس أوغسطين الذي يعتبر من أبرز أعلام سوق أهراس إذ مثل رصيده الفكري موروثا ثقافيا محليا وعالميا؟ وهل رسخت هذه الكتابات صورة المدينة الميثولوجية لدى الآخر التي ارتبطت بصورة القديس أوغسطين؟ وهل ساهمت رحلات الحج في ذلك؟ وما هو تأثير هذه الرحلات؟.

تعتبر هذه الدراسة ذات أهمية تاريخية وفكرية تساهم في التعريف بشخصية القديس الذي مثل رمزا محليا للجزائر وتحول إلى شخصية عالمية وإنسانية بفكره الإنساني، ويعيدا عن الدراسات الفلسفية المتخصصة نحاول دراسة الموضوع بنظرة تاريخية بحثة من خلال كتابات الرحلة في القرن التاسع عشر للرحالة الفرنسيين ونظرتهم للقديس وإرثه الإنساني.

1- أهمية سوق أهراس في الفترة الاستعمارية:

سوق أهراس المدينة التي ولد بها القديس أوغسطين، عرفت منذ التاريخ القديم بأهميتها⁽¹⁾، تعتبر من أهم المناطق التي جذبت الاحتلال الفرنسي الذي عمل على إرساء الاستيطان بها فتعرضت المنطقة للهجوم الفرنسي بهدف حماية المستوطنات الفرنسية⁽²⁾، وتكمن أهمية المنطقة في إستراتيجية الطرق القديمة بها كالتاريخ الرابط بين عين البيضاء وخنشلة وسوق أهراس التي كانت تراه سلطات الاحتلال منفذا لتوجيه حملات ضد النمامشة أو أي منطقة على الحدود التونسية التي تتعرض للخطر⁽³⁾، وكانت سوق أهراس منظوية تحت سلطة الحناشنة في القديم⁽⁴⁾، وأثناء ثورة 1871 ثار صبايحية سوق أهراس في 22 جانفي 1871 ومثلت أولى عمليات التمرد في البلاد، وكانت سلطات الاحتلال قد أرسلت القوات الفرنسية من قسنطينة يوم 19 جانفي أي أربعة أيام قبل تمرد الصبايحية الذين كانوا على علم بقدوم الحملة الفرنسية التي تدعمت بفيالق من بونة ومن بوش دي رون القادمة من فرنسا، وتمكن الجنرال بوجي Pouget من القضاء على تمرد سوق أهراس⁽⁵⁾.

كانت سوق أهراس من أولى البلديات المختلطة الموجودة في المقاطعات منذ 1879، وتأسست بها بلدية الصافية في منطقة عسكرية ومركز القيادة بسوق أهراس بتاريخ 11 مارس، إذ مثلت جزءا من البلدية الأهلية

لسوق أهراس⁽⁶⁾، وكانت من المناطق الأولى التي أنشأ بها المكاتب العربية وهي تعنى بمصالح الأهالي بعد صدور القرار الحكومي في 12 ماي 1879 تحت الإشراف المباشر للحاكم العام، وكانت سوق أهراس دائرة تابعة لمقاطعة عنابة⁽⁷⁾.

المعروف أن سلطات الاحتلال الفرنسي عملت على سن مجموعة من القوانين ففي مجال العدالة، عرف القطاع تعديلات سنة 1877 وبمقتضى مرسوم 6 أفريل تم تقسيم المحاكم الابتدائية إلى عدة أقسام وتدرج سوق أهراس في القسم الثالث⁽⁸⁾، كما كانت بها بعض المرافق كالمستشفى الذي كان يتسع إلى 17 سريرا يقدم خدمات بسعر 2.45 فرنك لليلة⁽⁹⁾.

من جهة أخرى، في مجال الاستيطان ولتحسين الخدمات كانت بسوق أهراس مراكز الخصم وصناديق فلاحية مرتبطة بالقروض الفلاحية التي تخدم الاستيطان بالمنطقة⁽¹⁰⁾، كما تعتبر سوق أهراس من المناطق التي برمجت بها مشاريع السكة الحديدية، حيث مُد الخط الرابط بين قالمة وعنابة وتبسة إلى سوق أهراس⁽¹¹⁾، هذه المدينة التي كانت تتميز بثراء غطائها النباتي وبتنوعها البيولوجي فحتى سنوات 1879 كانت بغاباتها الأسود والفهود والحيوانات البرية التي انقرضت بسبب الصيد العشوائي⁽¹²⁾، وتعتبر من أجمل المناطق كما يصفها "ألفريد بارودون" في كتابه الشهير حول "الجزائر وتونس: رحلة سفر ودراسات" فهو يصف الطريق الرابط بين عنابة وتونس عبر سوق أهراس بأجمل الطرق في الجزائر ويمثل طريق "سامارينغ" "Sommering" في "فيينا" "Vienne" وكانت بجمال سوق أهراس أجمل المناظر الطبيعية تكسوها أشجار البلوط وتتخللها الأودية⁽¹³⁾.

وهذا تقديم مختصر لسوق أهراس التي حظيت باهتمام وعناية سلطات الاحتلال وذلك لأهميتها الإستراتيجية كمنطقة استقطاب للاستيطان وملقى الطرق بين مناطق أساسية للاستعمار الفرنسي بالبلاد ومثلت نقطة لمراقبة المناطق الحدودية .

2- صورة أعلام سوق أهراس في كتابات الرحالة الفرنسيين:

2-1- القديس أوغسطين معلم منطقة سوق أهراس:

يرصد طريق رحلات الحجاج تاريخ المنطقة الحضاري وجزء من الحياة الاجتماعية والموروث الثقافي مما يعطي أهمية علمية لهذه الكتابات التي توثق للمنطقة، من خلالها نكون صورة عن القديس أوغسطين والمكانة التي حظي بها.

لطالما تميزت العبادة والشعائر الدينية لمسيحيي إفريقيا، وتمتع علمائها ومنظريها في الديانة المسيحية بشهرة كبيرة عبر التاريخ الإنساني ك: "ترتيليون" "Tertullien"، "القديس سيبريون" "Saint Cyprien"، "القديس أوغسطين" "Saint Augustin"، "القديس فيلجنس" "Saint Fulgence"، "المنصب التذكاري لعبادة مريم العذراء" ويرجع للفترة القديمة، كذلك التمثال الذي يعود لمريم العذراء ووجد بقرطاج، وشهادات المؤرخين وكتاباتهم كالمؤرخ "بروكوب" و"النصب الثلاث" التي أنشأت لمريم العذراء في إفريقيا في عهد "الإمبراطور جوستينيوس"، فكانت إفريقيا أرضا للحج تستقطب جموع الحجاج المسيحيين كالحج إلى "السيدة الإفريقية"، ومن المهم أن نعترف أن مسيحيي إفريقيا كان لديهم دائما العظمة والتميز، وكان لديهم رجال دين عظام⁽¹⁴⁾ خاصة "القديس أوغسطين" الذي يوصف في الكتابات العلمية الفرنسية التي تعود إلى الفترة الاستعمارية بأنبل شخصية في شمال إفريقيا، ولد بتاقاست، درس ببادور ثم قرطاج، وبعدما قضى وقتا كبيرا في إيطاليا عاد إلى أفريقيا عام 388 م وألف العديد من الكتب واجه في كتاباته المانويين والدوناتيين بصفة خاصة⁽¹⁵⁾.

الملاحظ أن هذه الدراسات تركز على انتشار المسيحية في البلاد شمالا وجنوبا، ففي أقصى الجنوب يتحدث "الأب لوإي" "Charles Loyer" عن المسيحية في المناطق الجنوبية، ويقول أن المثير للانتباه أنه في منطقة الطوارق انتشرت المسيحية وكان يطلق عليهم "مسيحيو الصحراء"⁽¹⁶⁾.

2-2- صورة ومكانة القديس أوغسطين في كتابات الرحلة:

مع بداية فترة الاحتلال الفرنسي عرفت البلاد تغيرات اجتماعية واقتصادية ارتبطت بالوضع السياسي الجديد، فعملت إدارة الاحتلال الفرنسي على ربط المستوطنة الجديدة بالميتروبول وكان المرسوم الملكي لـ 22 جويلية 1834 بمثابة الربط السياسي الرسمي وواكبته جهود كبيرة للربط الديني والثقافي من خلال البعثات الدينية والآباء البيض الذين تشبثوا بفكرة إحياء المسيحية وربط شمال إفريقيا بالإرث الروماني العرقي والديني.

فمنذ القرن الثاني للميلاد أصبحت إفريقيا رومانية وانتشرت المستوطنات الرومانية في كامل إفريقيا، وكانت الطرق مبلطة وازدهرت المراكز السكانية وتغلغت الفرق العسكرية الرومانية حتى أعماق الأطلس والمناطق الداخلية⁽¹⁷⁾.

إذ حافظت الآثار الرومانية من معالم ونصب ومعابد على خصائصها المعمارية خاصة الكنائس الصغيرة في المناطق الريفية بكل خصائصها⁽¹⁸⁾.

كانت الرحلات الدينية من أهم نتائج الاحتلال إذ بُدئَ برحلات الحج بصفة دائمة إلى الآثار المسيحية بالمستوطنة وبصفة خاصة قبر "القديس أوغسطين" بهيبون، وما يهنا هنا هو مؤشرات عن صورة القديس أوغسطين كمعلم تاريخي لسوق أهراس ومسقط رأسه بمداوروش وليس مدينة هيبون التي أنهى حياته بها.

وهذا ما يبينه خطاب "الكاردينال لافيغري" في افتتاح مؤتمر الجمعية الاقتصادية والاجتماعية بباريس في 13 جوان 1889، إذ أكد على العدد الكبير لهذه الرحلات في حديثه على مدى التأثير الفرنسي في المستوطنة وتعمق فرنسا في دواخل البلاد والدليل كما يقول ليس فقط ذكريات الرحلات إلى الأماكن المقدسة لآداء الحج بل كذلك رحلات المنجذبين بسحر الشرق والمتأثرين بتيار المستشرقين إلى المستوطنة التي أصبحت طريقا للحج⁽¹⁹⁾.

3- نماذج لرحلات الحج:

3-1 - رحلة الكاتبة الفرنسية Mme Marie Noël: ترصد الرحلات الدينية مسار الحج وصورة القديس لدى الحجاج، هذه الصورة النمطية المرتبطة بإفريقيا الرومانية في محاولة لإسقاطها على نموذج الجزائر الفرنسية، إذ قبل وصفها لرحلة الحج رصدت بذاتية مؤشرات عن المجتمع المحلي وتنقلت بين الفترات لتركز على صورة "الملك النوميدي يوغرطة" المهزوم المكبل من طرف "القائد الروماني ماريوس" المنتصر، ثم تعرض فترة "القديس أوغسطين" وجانبا من حياته وآثاره لتعود إلى الفترة الوندالية التي قضت على "القديس" وفتحت باب الاضطهاد بين الطوائف المسيحية بعد سيطرة المذهب الأريوسي واضطهاد الكاثوليك، لتعرج على الفترة البيزنطية "المنقذة" وتنتهي بالفترة الإسلامية أين تواصل الكاتبة سردها بذاتية بعيدة عن الكتابة العلمية، محاولة تركيب صورة مستهجنة عن السكان المحليين وعن دينهم.

من خلال رحلتها الأولى التي قامت بها في فصل الربيع من شهر مارس وكانت متحمسة جدا مفعمة بالإيمان تبحث عن الروحانية بين آثار "القديس أوغسطين"⁽²⁰⁾، نستنتج المكانة الكبيرة للقديس أوغسطين لدى الحجاج فهو المخلص ويمثل القاعدة الروحية للعقيدة المسيحية بين الأتباع المؤمنين.

بعدها تصف بإسهاب رحلة الوصول إلى هيبون لأداء الحج إلى قبر القديس وقدمت لنا وصفا دقيقا ومفصلا ساهم في التعريف بطبوغرافية المنطقة وآثارها العمرانية وتورد معلومات حول النصب الديني للقديس وتصف بدقة المكان ومسار الحج.

إذ تقول: ".....، أما المكان فبعد دفن وفاة القديس سنة 1842 ميزه النصب وهو بسيط به المذبح من الرخام الأبيض والعارضة دائرية وتمثال من البرونز محاط بسياج، وكان لنصب هذا التمثال بين آثار هيبون أثر كبير فهو في الهضبة ويطل على البحر ويحمي المدينة النائمة....، وتنتشر أشجار الزيتون حول النصب وكان الحجاج يأخذون أكاليل وحبوات الزيتون، وتتصب آثار كثيرة لهيبون وبقايا أثرية أخرى قرب البحر كذلك ويعتقد الحجاج أن هذه الأسوار تمثل بقايا كنيسة السلام المشهورة التي كان القديس أسقفا لها لعدة سنين،....."(21).

تواصل الكاتبة وصف الاحتفال بيوم القديس وتضيف: "... يوم 29 أوت عيد القديس فقدت فيه ربوة هيبون هدوءها وأصبحت مكتظة بالحجاج في ذهاب وإياب، وبُدئَ الاحتفال بإحياء التضحية المقدسة بالصلاة بين الآثار وكانت مزينة بالورود والروائح الممتزجة بين الياسمين والجيرانيوم البري، بالكنيسة غير المقبية والتي تتسرب عبرها أشعة الشمس في منظر مميز..."(22).

في رحلة الحج تنقل لنا الكاتبة صورة القديس في نظر أحد مرافقيها الذين التقت بهم في الطريق وكان يتأسس قافلة حجاج وهو من مرسيليا السيد "ستيفانوني" "M.Stefanoni" الذي أكد أن تاريخ "القديس أوغسطين" يعرفه الجميع هذا العبقرى الذي لفت انتباه كل العالم إلى أبريشته، إذ لما كان كاهنا بها فزار هيبون مجلس أساقفة إفريقيا برئاسة أسقف قرطاج، كما زاره العديد من الشخصيات المشهورة وقدموا احترامهم له كرجل دين وعالم كنسي كما وجد العديد من الناس السلام على يديه(23).

قدمت لنا الكاتبة القديس في صورة مهيبة تتميز بالقدسية والاحترام، وارتبط هذا التقديس بالإيمان وبصورة القديس الإنسان والعالم وبمدينته الفاضلة "هيبون" التي تعتبرها جزءا منه خاصة الأماكن التي عاش فيها فهي تشعر بوجود القديس في كل مكان، فقدست القديس والمدينة على حد سواء.

الملاحظ عموما كانت معلوماتها متداخلة ما بين الحديث عن رحلة الحج وعن القديس وتاريخ المدينة، من خلال رحلتها قدمت معلومات متنوعة عن المنطقة ما بين التاريخ والجغرافيا، إذ أسهبت في الحديث عن الفترة الرومانية بالمنطقة وكثيرا ما كررت صورة القائد النوميدي "يوغرطة" والقضاء عليه من قبل القائد الروماني "ماريوس" وقد تكون هذه الصورة مرتبطة في مخيلة الكاتبة في إسقاط لانتصار الرومان والمسيحية في إفريقيا، كذلك نوعت المعلومات ما بين التعريف بالقديس والحديث عن الجانب العقدي والديني وناقشت قضايا عقدية كنفذ المانويين التي اعتنقها القديس في بداية رحلة الإيمان.

وتبقى الرحلة ذات أهمية تاريخية وثقت لتاريخ المنطقة ولشخص القديس الذي يعتبر رمزا محليا ومعلما دينيا وإنسانيا عالميا حمل للعالم قيما روحية ربطت بين ضفتي المتوسط ووحدت الشعوب في طريق الحق والإيمان.

4 - رحلات رجال الدين وكتاباتهم عن "القديس أوغسطين":

4 - 1 - صورة "القديس أوغسطين" من خلال مطران كامبري "Archevêque de Cambrai":

يربط هذا المطران صورة "القديس أوغسطين" بهيبون المدينة، ويرى أن ذكرى القديس متواصلة في هذه المدينة التي كان أسقفا بها وعمل على نشر المسيحية بها مدة أربعين عام، ابن "القديسة مونيك" الذي انتهت حياته على يد الوندال، وبشغف كبير وفخر تقام مراسيم إحياء يوم القديس ويوم الصلاة أسقف الجزائر - الذي نصب يوم 28

أكتوبر 1838 M.A.A.Dupuch - والتي ستقام في قبر القديس وكان أول من طالب بإقامة كنيسة تكريما للقديس وسانده كل أساقفة فرنسا.

بعد زيارته إلى قبر القديس التي وصفها المطران "بالجليلة" ووصف زيارته إلى آثار قبر القديس وكان المكان محافظا على بعض أعمدته في حالة جيدة ويصف روحانية المكان أين قام بدفن جزء من عظام القديس بعد 1240 سنة وأنهى صلواته مباركا المؤمنين⁽²⁴⁾.

كان الحج إلى قبر القديس يلقى إقبالا كبيرا من الفرنسيين المتدينين، وعملت الكنيسة على تأطيره فكما يصف الكاتب الحج سنة 1839 أين كانت ترافق الكنيسة المرضى والحجاج إلى الضريح منطلقين من "فيليب فيل" - سكيكدة-، وكان الجو مهيبا بين الحجاج وصور لنا المطران مدينة هيبون وآثارها الرومانية كالجسر الروماني والغطاء النباتي خاصة أشجار الزيتون والعناب إذ كانت تعرف بين السكان بحديقة القديس أوغسطين وكانت ممراتها مزينة بأشجار الكرز والزيتون والعناب واللوز والبرتقال والليمون.

وانتشر الحجاج في تداخل بين الآثار الرومانية المترامية في المكان وكما يصفها المطران تحديدا بـ "الأطلال العملاقة"، وكانوا مرتدين ملابس الاحتفال مرفوقين بالفرقة الموسيقية العسكرية والجنرال وقائد الأركان والقضاة وضباط البحرية والخيالة ويفتخر المطران بإحياء هذه المراسيم المهيبة⁽²⁵⁾.

وتمثل رحلته شهادة ومصدرا توثيقيا هاما عن المدينة والقديس ووصف لمراسيم الاحتفال والحج.

4 - 2- صورة "القديس أوغسطين" من خلال رئيس الدير الأب سيشي L' Abbé Suchet :

زار هيبون في 16 ديسمبر 1839 أو كما يطلق عليها "بلاد نوميديا" أرسله أسقف العاصمة لزيارة هيبون وقسنطينة وبجاية كنائب عام كنسي، انطلق من العاصمة إلى "بونة" وبروي رحلته وصلواته "لقديس أوغسطين" لحمايته في أرض القديس المباركة التي قضى بها 12 يوما في الصلاة وقراءة الاعترافات في جو هادئ، وبهرته الآثار الرومانية المقابلة للبحر والمكان الذي كان يتنقل فيه القديس ويزور الأساقفة ما بين روسيكادا، وشرشال والعاصمة، وأعاد تصوير جزء من حياة القديس وأحيائها باعترافاته وصلواته في محاكاة لتوبة القديس⁽²⁶⁾، وقبل مغادرته المكان "المقدس" قام "الأب سيشي" L' Abbé Suchet بتفقد مبنى الكنيسة الذي رعاه الأسقف العام للجزائر بمساعدة وأموال أساقفة فرنسا وكانت في بداياتها إذ ارتفعت بعض الأعمدة فقط من البناية.

من خلال وصفه وأفكاره المطروحة تتبين القيمة الروحية الكبيرة للقديس أوغسطين لدى رجال الدين الفرنسيين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم المحيين للتراث المسيحي للقديس سواء بالحج والزيارات أو البناء والترميم لآثار القديس والمدينة.

4 - 3- صورة "القديس أوغسطين" من خلال رئيس الدير الأب M. l'abbé Léon Sibour :

تكمن حسب "الأب سيبور" الأهمية الروحية والعلمية للقديس والكنيسة في نظر رجال الدين الفرنسيين خاصة أسقف مدينة الجزائر "M.A.A.Dupuch" الذي بدل قصادى جهده لإحياء تراث "القديس أوغسطين" وحماية آثاره والاعتراف بالدور الديني للكنيسة الإفريقية التي يصفها "الأب سيبور" بـ "بأم العلوم".

ويصف "الأب سيبور" "M. l'abbé Léon Sibour" تأثره بالقديس إذ يقول: "... في هيبون أين اقتنيت أثر "القديس أوغسطين" لقد ارتبطت بخطواته وتابعت طريق القديس وحيثيات حياته كأسقف وموثق لقد درفت الدموع وتلوت صلوات الحمد واختلجتني المشاعر الجياشة، وشدني دموع وصلوات المصلين في الكاتدرالية "كاتدرالية السلام"،... ولقد قضيت بها ساعات عديدة في القراءة والتأمل...".

وهنا ينقل لنا "الأب سيبور" صورة الحجاج ومراسيم الحج ومكانة "القديس" واللافت هو رصده للمدينة وآثارها فالمستوطنة مثلت لهم مكانا مقدسا بقوله: "...كانت له الرغبة في زيارة الجزائر المستوطنة المقدسة للطريق الديني" (27).

ويحاول إظهار دور فرنسا في استرجاع بقايا القديس وهي بمثابة إعادة السلام لروحه بإعادته إلى المهدي والوطن، وكانت وسعادة رجال الدين كبيرة بهذا الإنجاز.

يصف مراسيم دفن وفاة القديس سنة 1842 في احتفال رسمي كبير ومهييب حضره مجموعة من أساقفة فرنسا يتراهم أسقف الجزائر العاصمة، يوثق "الأب سيبور" الرحلة بالتفصيل من ميناء سطورة يوم 30 أكتوبر للوصول إلى بونة عشية "عيد القديسين" ورافقهم مجموعة من الأساقفة وقيادة الأركان، وبدأ في سرد الاحتفالات التي واكبت استرجاع وفاة القديس لإفريقيا، إذ يشبه أسقف العاصمة بنابوليون وعبر عن الحدث بـ "المجد والنصر الفرنسي في هيبون" الذي واكب إعادة وفاة القديس في أول نوفمبر وزين الشاطئ المؤدي لمدينة القديس، وحضر كل سكان بونة إلى المراسيم فاختلف الأهالي بالأوروبيين، بقوله: "... لاحظنا الجميع مختلفين الأوروبين وسكان بونة الحضر والبدو من القبائل المجاورة وقبائل المناطق الجبلية كذلك أتوا جميعهم بمحض إرادتهم لحضور قداس التأبين..."، ويضيف: "...كانت الآثار تملأ المكان ولمرور بقايا القديس من المكان قدسية خاصة مرتبطة بالأحداث التي عاشها القديس والتي يحييها مروره اليوم عبر جسر أبو جمة Abou- Gemma واكبه غناء مقدس تأثر الأساقفة وبارك أسقف بوردو البقايا المقدسة في حين أدى الصلاة أسقف الجزائر وأعاد له عصا القس في الجسر وكانت أشجار الزيتون تملأ المكان...".

وما ميز المكان تنوع الحاضرين بألبستهم وأعرافهم ولغتهم ودينهم، فالعربي بالبرنس بجانب الضابط الفرنسي بزيه العسكري الرسمي والنساء بألبستهن المنمقة والمتنوعة الممثلة لكل الدول الأوروبية التي ينتمي إليها سكان المدينة فجد الشاشية العربية الحمراء واللباس الأسود اليهودي لقد حضر السكان حتى البدو كذلك كانوا تحت أشجار التين بلباسهم المميز الحايك.

وكان خطاب أسقف بوردو موجها للجنود وبعد الخطاب بارك كل الأساقفة البقايا المقدسة وأثناء الفترة المسائية تفرقت جموع المصلين وغادر الجمع هضبة القديس (28).

من عرضنا لنماذج الرحلات الدينية هذه، التي قام بها رجال دين رسميون من أساقفة وكهنة ورجال دين معروفين "كالأب سيشي" و"الأب سيبور"، لاحظنا تنوع وتعدد الرحلات الدينية لصريح القديس، وثراءها بالمادة الخيرية التي ساهمت بالتعريف بالقديس أوغسطين ودوره في إثراء الإرث الإنساني، وبدور أساقفة الجزائر كأسقف الجزائر العاصمة "الأب ديبش" في إحياء الاحتفالات الدينية ودوره في ضم جهود أساقفة فرنسا لاسترجاع وفاة القديس وإعادة إحياء التراث الأوغسطيني الإنساني في المستوطنة.

فكان لهذه المجهودات دور في جذب الحجاج وتنشيط السياحة الدينية بالبلاد وإعادة إحياء التقاليد المسيحية التي ارتبطت بالقديس وإرثه الديني الإنساني العالمي.

وتبقى هذه الرحلات الدينية في جزء منها موضوعية بالمقارنة برحلات الحج التي قادها عامة الفرنسيون من منقون وشخصيات عامة والتي تميزت بالذاتية وانتقدت التاريخ المحلي خاصة النوميدي في محاولة لتقديس فكرة إفريقيا الرومانية وإفريقيا المسيحية وربطها بالمستوطنة المكرسة لفكرة الجزائر الفرنسية.

إذ عالجت هذه الرحلات التي قادها رجال دين ومسؤولين في المؤسسات الكنسية بالمستوطنة جوانب دينية محضة تخص شخصية القديس ودور أساقفة الجزائر الفرنسية في إحياء التراث الديني المسيحي بالمستوطنة، ومحاولة الترميم والبناء وترسيخ الإحتفالات الدينية وتشجيع الحج لآثار القديس في روة هيبون خاصة بعد إسترجاع بقايا من رفاة القديس لبث روحه في المكان وإعادة إحياء تراثه الإنساني وخدمة الكنيسة الكاثوليكية في المستوطنة. وتبقى هذه الكتابات تكتسي أهمية علمية لتكوين صورة عن "القديس أوغسطين" الذي يمثل جزء من تاريخ المنطقة وشخصية فاعلة ذات تأثير حضاري يعكس الموروث الثقافي والإنساني لتاريخ بلادنا في القديم ويحفظ في الذاكرة المحلية ويمثل جزء من التاريخ الحضاري للجزائر.

ومن المهم تثمين هذه الكتابات التي تمكن الباحث من إستقراء وإستنباط مؤشرات تساهم في بناء وتكوين صور عن المجتمع ومعالمه، قصد كتابة تاريخ المنطقة بقراءات جديدة بتفكيك التاريخ وكتابة التاريخ الجديد للمنطقة ورموزها.

فالتاريخ هو الركيزة الحضارية لذاكرة الشعوب التي تمثل المحفز والدافع للأجيال للبناء الحضاري.

خاتمة

تمثل كتابات الرحلة شكلا من أشكال التوثيق التاريخي الذي وثق التاريخ المحلي للمجتمع الجزائري وكتب عن أعلامه ورموزه، ورغم ما يلاحظ من ذاتية وكتابات موجهة إلا أن الرحالة نقلوا لنا صورا ثرية ومتعددة ساهمت بشكل ما في التوثيق والتعريف بإرثنا الحضاري.

وما كتب من خلال رحلات الحج عن القديس أوغسطين ومدينته كان متنوعا ما بين الحجاج والزوار ورجال الدين ورغم تنوع أنماط الكتابة واختلاف الصور المركبة فهذه الكتابات قدمت أوغسطين كعلم من أعلام سوق أهراس وأبرزت تأثير فكره الفلسفي والديني في العالم، وبالتالي تخطى المحلية إلى العالمية فهو لم يعد رمزا محلي محضا بل رمزا عالميا يمثل إرث فكري وثقافي إنساني.

ومن خلال هذه الدراسة خلصنا إلى عدة نتائج منها:

- 1- أن كتابات الرحلة ساهمت بالتعريف بمنطقة سوق أهراس وبرموزها.
- 2- حظي القديس أوغسطين باحترام كبير تبين من خلال الكتابات التاريخية.
- 3- كانت صورة القديس أوغسطين ميثولوجية في عيون الرحالة الفرنسيين.
- 4- كان للرحلات تأثير في الجذب السياحي للمنطقة والتعريف برموزها.
- 5- ساهمت الكتابات ورحلات الحج في تثمين المعالم الحضارية كموروث ثقافي محلي خاص بالمنطقة والبلاد.
- 6- رسخت هذه الكتابات صورة القديس الروحية.
- 7- كان للاحتفالات الدينية وإحياء عيد القديس أوغسطين دور في تنشيط السياحة الدينية.
- 8- كان لأسقف العاصمة "دي بيش" دور في إحياء التراث الديني للقديس أوغسطين.

الهوامش:

- 1- Victor Bérard, Les Saints de L'Algérie, imprimerie Marc Aurel éditeur, Valence, 1857, p 235.
- 2- Le V^{te} De Caix de Saint -Aymour, Questions Algériennes Arabes et Kabyles, Paul Ollendorff, éditeur, Paris, 1891, p 122.
- 3- Charles féraud, Ain Beida (province de constantine), Revue Africaine, volume 16, Année 1872, A. Jourdan, libraire-éditeur, Alger, 1872, p 405.
- 4- Charles féraud, Les Harar seigneurs des Des Hanencha, études historiques sur la province de constantine, Revue Africaine, volume 18, Année 1874, A. Jourdan, libraire-éditeur, Alger, 1874, p 22.

- 5- Charles féraud, Documents pour servir à l'Histoire de Philippeville, Revue Africaine, volume 20, Année 1876, A. Jourdan, libraire-éditeur, Alger, 1876, p. p 100-101.
- 6- M.Albert Grévy, État actuel de l'Algérie, Imprimerie Administrative Gojosso et c^{ie}, Alger, 1880, p 29.
- 7- M.Louis Tirman, État actuel de l'Algérie, Imprimerie Administrative Gojosso et c^{ie}, Alger, 1881, p. p.65-66.
- 8-M.Le Général Chanzy, M.Le MyreDe Vilers, État actuel de l'Algérie, Imprimerie Administrative Gojosso et c^{ie}, 1878, Alger, p. p 130-131.
- 9- M.Louis Tirman, État actuel de l'Algérie, Imprimerie de l'association ouvrière P.Fontana et c^{ie} Alger, 1883, p 36.
- 10- Lacanaud, E, L'Algérie au point de vue de l'économie sociale, Giralt, Imprimeur-Photographeur, Alger-Mustapha, 1900, p 47.
- 11- Bryon, Septime (Dr). La première Tournée de révision dans la province de Constantine, Constantine imprimerie Ch. Bayard, Constantine, 1877, p 6.
- 12-Paul Bourde, à travers l'Algérie, souvenirs de l'excursion parlementaire (septembre-octobre1879) G.Charpentier, éditeur, Paris,1880, p 52.
- 13-Alfred Baraudon, Algérie et Tunisie: récits de voyage et études, Librairie Plon, Paris, 1893, p 224.
- 14- Le Cardinal Lavigerie, Notice sur le pèlerinage de Notre-Dame d'Afrique à Alger, E.Gaudet, 2e éd. revue, corrigée et augmentée, Alger, 1924, p. p 15-16.
- 15- Mercier, Ernest, Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbérie) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française (1830), Tome 1, Ernest Leroux éditeur, Paris, 1888, p 141.
- 16- Loyer, Charles, Les Touaregs, Benjamin Duprat, Paris, 1863, p 16.
- 17- P. Mauroy, Question d'Alger en 1844; précédée d'un précis de la domination romaine dans le nord de l'Afrique, et suivie d'un appendice sur le commerce de l'Algérie avec l'Afrique centrale; Imprimerie de J.B Gros, Paris, juin 1844, p 12.
- 18- Comité des travaux historiques et scientifiques (France), Recherche des antiquités dans le Nord de l'Afrique: conseils aux archéologues et aux voyageurs / instructions adressées par le Comité des travaux historiques et scientifiques aux correspondants, Angers imprimerie, A. Burdin et c^{ie}, Paris, 1890, p 154.
- 19- Picot, Georges, Le cardinal Lavigerie et ses œuvres dans le bassin de la Méditerranée et en Afrique: discours prononcé, le 13 juin 1889, dans la séance d'ouverture du congrès de la Société d'économie sociale, Au secrétariat de la société d'économie sociale, Paris, 1889, p 2.
- 20- Mme Marie Noël, Pèlerinage à Hippone, F.F.Ardant Frères, Limoge, 1869. p. p 5-6.
- 21- Ibid., p. p 27, 30-32, 35-36.
- 22- Ibid., p. p 65-66.
- 23- Ibid., p. p 52-53.
- 24- Égron, Adrien-César, L'Algérie chrétienne, L. Leffort, Imprimeur-Libraire, Lille, 1847, p. p.192-194.
- 25- Ibid, p.p.194-196.
- 26- Suchet, Abbé, Lettres édifiantes et curieuses sur l'Algérie, Tours A^d et c^{ie} Imprimeur-Libraire, Tours 1840, p.p 94 -97.
- 27- M. l'abbé Sibour, Léon, Lettres sur la translation à Hippone de la relique de saint Augustin, La Bibliothèque Royale, Paris, 1844, p.p 8-10,12.
- 28- Ibid., p.p 104-111.

قائمة المصادر:

- 1- Alfred Baraudon, 1893, Algérie et Tunisie: récits de voyage et études, Librairie Plon, Paris.
- 2- Victor Bérard, 1857, Les Saints de L'Algérie, imprimerie Marc Aurel éditeur, Valence.
- 3- Paul Bourde, 1880, à travers l'Algérie, souvenirs de l'excursion parlementaire (septembre-octobre1879), G.Charpentier, éditeur, Paris.
- 4- Bryon, Septime (Dr), 1877, La première Tournée de révision dans la province de Constantine, imprimerie Ch. Bayard, Constantine.

- 5- Comité des travaux historiques et scientifiques (France), 1890, Recherche des antiquités dans le Nord de l'Afrique: conseils aux archéologues et aux voyageurs / instructions adressées par le Comité des travaux historiques et scientifiques aux correspondants, imprimerie, A. Burdin et c^{ie}, Angers.
- 6- Le V^{ie} De Caix de Saint -Aymour, 1891, Questions Algériennes Arabes et Kabyles, Paul ollendorff, éditeur, Paris.
- 7- M.Le Général Chanzy.,M.Le MyreDe Vilers, 1878, État actuel de l'Algérie, Imprimerie Administrative Gojosso et c^{ie}, Alger.
- 8- Égron, Adrien-César., 1847, L'Algérie chrétienne, L.Leffort, Imprimeur-Libraire, Lille.
- 9- M.Albert Grévy, 1880, État actuel de l'Algérie, Imprimerie Administrative Gojosso et c^{ie}, Alger.
- 10- Lacanaud, E., 1900, L'Algérie au point de vue de l'économie sociale, Giralt, Imprimeur-Photographeur, Alger.
- 11-Lavigerie., 1924, Le Cardinal, Notice sur le pèlerinage de Notre-Dame d'Afrique à Alger, E.Gaudet, (2e éd. revue, corrigée et augmentée), Alger.
- 12- Loyer, Charles, 1863, Les Touaregs, Benjamin Duprat, Paris.
- 13- Mercier, Ernest, 1888, Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbérie) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française (1830), Tome 1, Ernest Leroux éditeur, Paris.
- 14- Mauroy., P., 1844. Juin., Question d'Alger en 1844; précédée d'un précis de la domination romaine dans le nord de l'Afrique, et suivie d'un appendice sur le commerce de l'Algérie avec l'Afrique centrale, Imprimerie de J.B Gros, Paris.
- 15- Noël., Mme Marie, 1869, Pèlerinage à Hippone, F.F.Ardant Frères, Limoge.
- 16- Picot., Georges, 1889, Le cardinal Lavigerie et ses œuvres dans le bassin de la Méditerranée et en Afrique : discours prononcé, le 13 juin 1889, dans la séance d'ouverture du congrès de la Société d'économie sociale, Au secrétariat de la société d'économie sociale, Paris.
- 17- Sibour., Léon, 1844, l'abbé, Lettres sur la translation à Hippone de la relique de saint Augustin, La Bibliothèque Royale, Paris.
- 18- Suchet., Abbé, 1840, Lettres édifiantes et curieuses sur l'Algérie, A^d et c^{ie} Imprimeur-Libraire, Tours.
- 19- M.Louis Tirman, 1881, État actuel de l'Algérie, Imprimerie Administrative Gojosso et c^{ie}, Alger.
- 20- M.Louis Tirman, 1883, État actuel de l'Algérie, Imprimerie de l'association ouvrière P.Fontana et c^{ie}, Alger.
- 21- Charles Féraud, 1872,Ain Beida (province de constantine),Revue Africaine, volume 16, Année 1872, A.Jourdan, libraire-éditeur, Alger.
- 22- Charles Féraud, 1874, Les Harar seigneurs des Des Hanencha, études historiques sur la province de Constantine, Revue Africaine, volume 18, Année 1874 , A.Jourdan, libraire-éditeur, Alger.
- 23- Charles Féraud, 1876, Documents pour servir à l'Histoire de Philippeville, Revue Africaine, volume 20, Année 1876, A.Jourdan, libraire-éditeur, Alger.